قراءة في رواية "حكاية بحّار"

عاطف البطرس

- الواقع وإحباط الحلم.
- الزمن وعزيمة المواجهة.
- البحر والمرأة وجهان لحقيقة واحدة.
- الرياسة وسام وصليب.

ولج عالم حنا مينة مغرٍ وجذاب، لكنه محفوف بالمخاطر كأية مغامرةٍ يتاح للانسان أن يقوم بها، لأن الحديث عن البحر - الحياة - يبعث شيئاً من الرهبة، تماماً كما بحار قديم ابتعد عن البحر ثم عاد إليه مرة أخرى وقد حرقه شوق لمعانقة الولادة من جديد.

«حكاية بحار» رواية الكاتب الكبير حنا مينة والتي لم تكتمل بعد هي رؤية حياة أكثر مما هي عمل فني روائي رغم التقنية البارعة التي عرض الكاتب عالمه من خلالها، هذه التقنية لا تغرينا رغم جاذبيتها بالقدر الكافي، لأن الشكل الفني موظف بعناية لخدمة المضمون بتمرس عجيب، انطلاقاً من أن الحياة ما زالت أغنى من كل الأشكال التي قدمت من خلالها حتى الآن.

ولما كانت المعاناة الحياتية للكاتب هي المادة الخام لأدبه، لذلك سأتجاوز الحديث عن البناء الفني للرواية كعمل متميز لكاتب خبر أدواته وعانى بصبر الأنبياء تمرُّدها، سأتجاوز ذلك للحديث عن المحتوى الروائي الذي قدمه الكاتب من خلال تطور شخصياته ومواجهتها للحياة.

نكاد نحار في وقفتنا عندما نحاول أن نتلمس صورة البطل في هذا العمل، أهو سعيد حزوم، أم صالح حزوم، أم البحر أي الحياة التي تحرك كل أبطال الكاتب. وتفجر رجولتهم، البحر - الحياة - ساحة الصراع الكبرى، العالم الأثير لدى، الكاتب، فالبحر هنا تمّ اختياره بعناية ودراية كاملتين، هو كاشف للشخصيات مبين لخصائصها، ملهم، عدوّ، صديق، واذا أردت أن تثبت رجولتك فاذهب إلى البحر وتزوّج العاصفة.

ستقتصر هذه الدراسة على ظاهرة الحلم عند سعيد حزوم وموقفه من الزمن ورؤيته للمرأة والبحر ثم تصوره وفهمه للرياسة وأخلاق الريّس وصفاته، على أن أعقد مقارنة في دراسة أخرى بين سعيد وأبيه صالح، مبيناً مدى تأثره به، وهل يمكن اعتباره امتداداً له موضحاً أي الشخصين اكثر نضجاً فنياً وحياتياً، ثم سأتحدث في مقال ثالث عن شخصية الطروسي بطل الشراع والعاصفة، مبيِّناً وجه التشابه بينها وبين شخصية صالح حزوم في النهاية لرسم صورة نهائية لمفهوم البطولة كما يقدمه الكاتب عبر شخصياته الروائية، سعيد، صالح، الطروسي، تلك الصورة التي لا تكتمل إلا باكتمال الشخصيات الثلاث التي ما هي في نهاية المطاف إلا شخصية واحدة تقدم فهماً متميزاً للبطولة من خلال المواجهة والنجاح في امتحان الحياة.

سعيد حزوم يحدق في الفضاء، يتفرس فيه، يراقب الشمس الكسول في السماء، راغباً أن تهبط عليه، أو ترخي شعرها فيتعلق بخصلة منه ويرتفع اليها، سعيد البحار الذي عاد إلى الشاطىء كدليل ومنقذ يتذكر أيامه الأولى، فتوته، شبابه. فمنذ أن بدأ رحلة البحث عن جثة أبيه، في صراعه مع البحر يسأل نفسه: هل أقبل الهزيمة، يهزمني البحر من أول جولة معه، بعد ذلك كيف انتصر، إذا تراجعت فلن أتقدم أبداً، يأخذ البحر ساحتي وينتهي الأمر، والبحر كيف يقبلني؟

لقد تعمد سعيد بالتجربة وختمته مملكة البحر، عندما وهب نفسه إليه، سعيد هذا يتأمل البحر الذي عاد إليه بعد غياب طويل يحاول في تأمله أن يخترق حصار الضرورة -

الشيخوخة - يتوق إلى مطلق بطولي لا يؤثر فيه الزمن، يهرب من عالم الركود في محاولة لتجاوز حصار البحر وضعف الجسد. انه عاشق البحر، حبيبه الأزرق الرحب فيه الخير والعطاء والنعمة والمرأة التي يحب، سعيد أصبح شيخاً بعد أن جاب الأرض، يترك البحر مقهوراً بفعل تقدمه في السن، يا لظلم الحياة!...

●الواقع وإحباط الحلم:

ككل البحارة، السمكة المرأة التي تخرج من البحر، حلم البحار في محاولته كسر رتابه الزمن، أثناء الرحلات الطويلة، ملاذ البحار، لقد حلم سعيد بها، رآها مرة، لم تخرج من الماء ولم تهبط في السماء، مد يده إليها، هربت منه، وفي قلب البحر اختفت.

سعيد يقول: إن السمكة المرأة لا تظهر للشيوخ، هي تحب الشباب، ولا أدري لماذا يقودني هذا الحلم عند سعيد إلى حلم لبحار آخر ولكنه في مكان آخر، ورحلة أخرى، حلم الشيخ آورغان في رواية ايتاتوف - الكلب الأبلق الرابض على حافة البحر - آورغان يحلم، السمكة المرأة وحدها القادرة على منحه السعادة الأبدية، كان يعلم ذلك وينتظر بفارغ الصبر، وعندما يلتقيان، كانا يسبحان بلا توقف وبقوة عظيمة، خاضعين لسلطة رغبة لا تقاوم ببلوغ مكان بعيد في النهاية كي يدركا في لحظة واحدة عابرة حلاوة ومرارة بداية الحياة، وعندما ينتهي حلم الشيخ حيث يصل إلى الشاطىء حاملاً سمكته على ذراعيه يبكيان معاً، ثم يعيدها الى البحر.

إن كلاً من الكاتبين يحاول توظيف الحلم، فالانسان منذ فجر ولادته ومنذ بداية رحلة عذابه للسيطرة على موجودات العالم. بدأ بالحلم حيث كان يعجز في الواقع، الحلم سلاح للمقاومة، ليس هروباً من واقع ظالم فقط وإنما هو قوة جديدة يكتسبها الحالم لمواجهة الواقع، فالحلم ضروري للبحار، صديقه هو، شريكه في وحشة دربه وطغيان هواجسه، ولكن إذا كانت وظيفة الحلم عند الكاتبين واحدة، والبحر واحداً، وأخلاق البحارة وزمنهم واحدة، رغم الخصوصية المحلية التي تميز قسمات كل منهم، وتجعل فرقاً بين هذا وذاك، إلا أن هناك عمومية تجمعهم، أو ليسوا عشاقاً للبحر رهباناً في معبده؟ الشيخ آورغان خبر البحر. كان حياته، وسعيد كذلك، فهل وصل سعيد إلى نفس النتيجة التي وصل اليها آورغان في حلمه، أيها حقق حلمه، وأيها خانه الحلم فحمل احباطه، وما السبب يا ترى؟ هل هو متعلق بالشخصيات أو بمن أبدعوها؟

آورغان وصل إلى السمكة، سبحا معاً، عاشا معاً، ثم أعتقها لحريتها، وهبت ذاتها، فوهبها حريتها، لأن السمكة تحب البحر كما أن الانسان يحب اليابسة، فالمشكلة إذاً ليست حلماً فقط، إنها أزمة الانتماء، لهذا عادت السمكة عند ايتاتوف إلى البحر وكذلك عادت سمكة حنا إلى البحر وبقي الانسان على اليابسة، كل في منتماه الأولي، ولكن تبقى مشكلة أخرى، لماذا هربت سمكة سعيد قبل أن يصلها؟

لعل مفتاح الحل هنا يكمن في مشكلة الحرية الوجه الآخر لقضية الانتماء، وكيف كان موقف كل من حنا وايتاتوف منها، وهي مشكلة معقدة، لا تقوم في فراغ فهي تابعة لمجموعة اعتبارات اجتماعية وتاريخية.

إن المجتمع الذي يعيش فيه حنا مينة برواسبه التاريخية وتخلّفه الحضاري، لا يمكن أن يقارن بأية حال بمجتمع ايتاتوف، مجتمع سعيد حزوم يحاصر الفرد، يكبله بقيود من الاعراف والتقاليد لا ترحم تفرد شخصيته الانسانية، في مجتمع كهذا لا يمكن ان يصل الانسان إلى حلمه، لا يمكن أن يصل سعيد الى حلمه، لانه في الواقع لا يستطيع الوصول إليه، أما آورغان فهو يعيش في مجتمع اكثر استقراراً، اكثر اطمئناناً، اكثر سعادة، لذلك كان حلم الشيخ آورغان محققاً، وليس لتحققه علاقة بكبر السن، أو أن السمكة لا تظهر الا للشباب، ومع هذا فقد كان حلم الشيخ آورغان مبتوراً لأن السمكة عادت إلى البحر ولكن بعد أن قطع الحالم معها مسافة، وكأن الكاتبين يريدان القول، ومن موقعين متفاوتين في تطورها الاجتماعي، إن الحرية لا تدرك والانسان لا يرى نفسه حراً الا في الحلم فقط وستبقى الحرية مشكلة الانسان الأولى في صراعه مع الطبيعة والمجتمع، ومهما قطعنا من الطريق فهناك شعاب أخرى كثيرة علينا أن نقطعها.

إن مجتمعاً يقوم على القمع بأشكاله المختلفة، المجتمع المقهور من الداخل والخارج، لا يسمح حتى في التطور أن يلتقي الانسان بحريته، أن يكسر قيوده المكبلة المتطلعة نحو مطلب انساني حر، عندها يدرك لماذا لم يصل سعيد إلى سمكته فأحباط الواقع يقود وبالضرورة إلى احباط الحلم، حتى ولوكان هذا الحلم وسيلة للمقاومة.

● فهم الزمان وعزيمة المواجهة:

«الزمن يا للزمن، السباق أكد له أنه بحار، غير أنه بحار عجوز. قد لا أكون عجوزاً، لكنني قد اصبح كذلك قريباً».

في امتحان لرجولة سعيد، يعرض عليه الفتيان السباق في السباحة، يختار سعيد، أيرفض وهو من خبر البحر؟ أيهزم أمام فتوة الشباب وهو الشيخ؟ أو يدخل معركة غير متكافئة، ليس لديه خيار، فعلى البحار الدخول في المغامرة،

عليه أن يدخل التجربة الجديدة، من أين جاء هذا الشاب ليخدش وقار العجوز؟ إنها معركة ويجب ألا نهزم، وان نواجه، لأن المجابهة قدر البحار.

السباق الذي دخله سعيد، ليس صراعاً بين شيخ وشاب، الشاب ليس نقيض الشيخ، إنه امتدا طبيعي له، هو ماضيه تحديداً، الماضي والحاضر في صراع، وضمن خطوط الصراع ترتسم ملامح المستقبل المظلم والمرعب لسعيد حزوم، ابن البحر، فكيف سيحل الكاتب مأزق سعيد هذا؟...

لقد أنقذه، ليس بانتصاره في السباق الذي وفق سعيد فيه باختيار طريقة السباحة فقط، وإنما وفر له طريقة اكثر رحابة وعمقاً وهو يدرك أن الشيخ سيهزم بعد سنوات، أنقذه بردّ اعتباره كسيّد للبحر مؤكدا أن الحياة تحتاج إلى طويلي النفس أصحاب الخبرة والدربة كما أنها تحتاج إلى اندفاع الشباب، وحيويته حيث تكتمل هنا الدورة الحياتية لسعيد حزوم، يتآخى الماضي الحاضر في اندفاع عجيب، ويدرك سعيد بعدها أن شبابه لم يذهب طالما أن هناك من يخلفه، ويعي تماماً أن استقبال الند بما يليق به من اختفاء هو وحده الذي يهب القدرة على الاستمتاع به ومتابعة السير بغية الوصول إليه.

ولكن مشكلة سعيد أنه لا يملك الصبر، يحمل نزق البحار وحدّة طباعه، يريد كل شيء جاهزاً أمامه، محققاً، طالما أنه يحمل امكانيات بطولية خارقة، متناسياً أن البطولة الفردية وحدها لا تستطيع أن تعرقل فعل الزمن، فمهما بلغ من عظمة وجبروت فهناك أشياء تحتاج إلى جهد أكبر من بطولة الفرد، لقد قرر سعيد ألا يترك العراك، ولن يخلي الساحة، قد يهزم، وهل يودع البحر مهزوماً؟ هذا أفضل من أن يودعه منسحباً، فليكن اذاً سباقاً شريفاً، يحترم الرجولة والبحر معاً، لقد انتصر الشيخ لكنه لم يفرح. تلك هي الحقيقة، هذا هو فعل الزمن، لقد وقع سعيد تحت وطأته الثقيلة، إنه القانون الأزلي، تلك هي قسوة الإنسان، شرطه العضوي، انتحاره الاجباري.

فهم سعيد هذا للزمن يقلل من عزيمة المواجهة لديه، لذلك يجب أن نفهم الزمن بمحتواه الاجتماعي، أن نراه ليس في لحظته الآتية بل في سيرورته الأبدية، المهم أن نواجه، أن نسير على الطريق خطوة نقطعها نحن والنهاية يصلها غيرنا، أبناؤنا، قد لا نصل نحن ولكن هم سيصلون، بهذا يصبح زمانهم امتداداً لزماننا، هذا ما استوعبه عامل الريجي الذي يملك الرؤية التاريخية الواضحة للزمن بثقله الاجتماعي، وهذا ما عجز سعيد عن إدراكه، لأنه لم يعتد التفكير بمشكلة الغنى والفقر، رغم أنه يعيش بين الناس، لكنه لا يهتم بالسياسة اليومية، ولا بالتأملات الاجتماعية وأبعادها، مقياسه للزمن حياته الشخصية فقط، من هنا كان سؤاله اللجوج لماذا، لماذا؟ تذكر الذين اغتنوا فجأة عندما دخل البار وشاهد زجاجات الويسكي، تذكر الذين أصبحت لديهم سيارات وأراضٍ وقصور، رغم أنه مستعد لأن يموت غداً إذا تحررت فلسطين أو إذا أصبح لكل عائلة بيت، لقد شارك في المظاهرات، وساهم في الانتخابات، شهد تعدد الأحزاب، إلا أن بلوته الكبرى كانت نفاد الصبر، اهتم بتحرير الوطن وتقدمه ولكنه جهل الطريق، وعندها تذكر أيضاً عامل الريجي وطول نفسه وصبره ونضاله الدؤوب من أجل تأسيس نقابة، إن عودة سعيد إلى الدرس الذي تلقاه من عامل الريجي نقطة تحول في فهمه للزمن، لقد أدرك عندها أن الوصول إلى الأهداف الكبرى لا تسير عبر طرق مستقيمة فلا بد من الصبر والوعي والحنكة، وعلى الانسان حين يعمل أن ينسى الزمن، عليه أن يعمل وكفى، أن يعمل ويكون شريفاً هذا ما تعلمه سعيد من عامل الريجي الذي فهم الزمن فهماً ايجابياً فعمق بذلك الفهم حسّه الثوري ورسّخ وعيه الطبقي، فأصبح فأصبح اكثر قدرة على المقاومة.

لقد أيقن سعيد أن كلام العامل كان صحيحاً، لذلك قرر أن يواجه الحياة، أن يلاقي قدره، وبهذا تسقط مقارنته المعتمدة على تصور مغلوط للحياة. اذا استمرت هي فني هو، لن يخشاها بعد الآن، ولكن عليها أن تأتيه من أمام لأن الرجل البحار لا يحب الغدر، سيقاوم، ولن ينسحب، لن يسمح بالمطاردة، سيأتيها وجهاً لوجه كما يليق ببحار من سواحلنا، سيقاوم حتى ينهار، وبعدها حين لا يكون فهي حرة أن تفعل ما تشاء، المهم ألا تكون ساقطة، فهو لا يحب الساقطين.

لقد علم سعيد أن الصراع قانون أزلي، وهو يحمل دائماً بشارة الانتصار طالما أن الأنسان يملك ارادة المقاومة، هذا ما أراد أن يقول الكاتب من خلال سعيد والعامل، إما حياة شريفة نكون فيها رجالاً نحمل أخلاق البحارة وإلا فالموت.

إن الطبيعة رغم قسوتها، تعترف بقوة الانسان. وتريده أن يتوج ملكاً عليها، ولكن بعد أن يثبت رجولته في مرحلة الصراع، عندها تصبح الشيخوخة ليست نهاية للانسان الفرد، لأن الرجال كالزيتونة فيهم خضرتها وقدرتها على المقاومة شباباً وفيهم صلابتها شيوخاً حتى عندما يصيرون حطباً لنار الحياة الحارقة.

• المرأة والبحر وجهان لحقيقة واحدة هي الحياة:

«البحار يتزوج البحر، يندمج فيه، حتى يحس بالانفعال

كما مع المرأة، إنه يفهم المرأة لأنه يفهم البحر، كلاهما متقلب، المرأة والبحر. ظلت يده تعبث بالرمل، سبحة هو، الرمل كالنار، شعر المرأة سبحة أيضاً، حين تداعب شعر امرأة وتتخلله أناملك المحمومة لذ بالصمت، أحس بالرمل كما يحس بجسد امرأة، إنه ناعم، أملس حارّ».

كل شيء في البحر يقوده إلى المرأة، كما أن كل شيء في المرأة يعيد سعيد إلى البحر، المرأة اذاً ليست امتداداً للبحر، بل هي جزء منه، أو قل هو جزء منها، الانسان ينصهر مع الطبيعة، يتحد معها، المرأة، البحر، الرمل. الرجل، الأصل والمولود في وحدة اندماجية لانهائية تتجاوز الفواصل وتتخطى الحدود، تلك هي رؤية الكاتب للانسان في وحدته وتآخيه وصراعه مع الطبيعة وعشقه لمصدره الأول. هذا العشق مصدر عظمته وسر ضعفه.

إن تمزق سعيد وتوزعه بين المرأة التي وهبته بيتها وبين البحر، وهذا المنولوج الذي قدمه الكاتب على لسان سعيد، هذا الصراع الداخلي، لن يخدعنا طويلاً، فالبحر هو المرأة وغيرته منها مؤقتة والصراع بينهما على امتلاك البحار سيزول ولكن لمن ستكون الغلبة يا ترى؟!

الغلبة لمن يحمل صدراً اوسع، رحابة وعمقاً، الأعمق الأصفى له الغلبة، من يعطي أكثر يربح، ولكنها مقارنة مغلوطة من الأساس ومعركة وهمية تصلح لحوار خيالي، فالبحر دون المرأة ناقص، كل شيء دون المرأة ناقص، لماذا تعطي الحياة كثيراً وتحرم اكثر؟!

الحياة ليست ظالمة قاسية دائماً، لقد أعطت الطبيعة المرأة البحر - رادمة الهوة بين الحقيقة والخيال، بعد أن أعادت المعركة الوهمية إلى أرض الواقع، مقدمة حلاً لإشكالية معقدة نغور في لاوعي الكاتب فلفيتها سحيقة الرسوخ في أعماقه: المرأة والبحر وجهان لحقيقة واحدة: هي الحياة بكل ما فيها من صخب وحب، دفء وبرودة، انغلاق وحرية، انعتاق ومصادرة، قسوة ولين، فالمرأة في عطائها بحر، والبحر في صفائه امرأة، ومرة أخرى يؤكد الكاتب بشكل فني رائع على وحدة الوجود وخروج الانسان من قلب الطبيعة التي يصارعها في رحلته مرة ويؤاخيها ويعشقها مرة أخرى ولكنه في عشقه هذا يجب أن يفنى في المعشوق، أن يتحد معه، لأن الشيء لا يعطيك نفسه إلا إذا أعطيته نفسك، ومن هنا نفهم قصة سعيد التي رواها عن ذلك الشيخ البحار الذي وقف على رأس السارية في نوبة حراسة، فلما سمع صوتاً جميلاً من المركب تملكته نشوة عارمة وعندما صاح المغني بمطلع بيت من الشعر، ألقى البحار نفسه في الماء تعبيراً عن الأعجاب.

قالت السيدة: ويموت من فرط الأعجاب؟

سكت سعيد وقال في نفسه «لن يفهموا علي».

إن حنا لا يدعونا لحب المرأة فقط بل يدعونا للحب حتى العشق، حتى الفناء، عشق الحياة التي المرأة أحد وجوهها، عشق الفن حتى العبادة بل وحتى الموت، لأن الانسان عندما يحب ويموت من أجل ما يحب يصبح انساناً حقيقياً. يستطيع أن يضفي انسانيته على كل ظواهر الطبيعة راداً لها بعض عطاءاتها المجزية.

• **الرياسة صليب ووسام:**

سعيد لم يكن قبطاناً، لم يكن ريساً، في يوم من الأيام، لكنه يحمل في طياته صفات الريس، هو يعلم أن الريس قبل أن يصبح ريساً، يمر بالعاصفة، يعرف طعم الموت، يعانقه، يتقن التعامل مع الريح والموج، يصبح خبيراً بقوانين البحر، يتعمد ويصبح ابناً حبيباً للُجة، في قلب العاصفة وتحت المطر يجلد خشبية المركب، الريس إلٰه في معبد، ورعيته بحارة، إنه مسيح جديد يطأ الموت في كل رحلة عاصفة من أجل المحافظة على شرف المهنة ونبل القضية، إنه يحمل الرياسة، وساماً وصليباً.

لقد أثارت أغنية فيروز «يا ماريا» تداعيات سعيد، وقدم الكاتب من خلاله لوحات رائعة لصورة الريس ومفهوم الرياسة، ليس في البحر فقط، بل في الحياة ايضاً، لأن البحر ميدان حياة واسع، لقد أبدع الكاتب في اخراج صورة القائد وأخلاقه، مشاعره من الداخل، علاقته برعيته، مقاربته الموت من أجلهم وهو يشعر بلذة عجيبة، كل ذلك عبر لغة شاعرية رشيقة، تأسر القارىء وتصرفه قليلاً عن متابعة تفاصيل اللوحة، لملاحقة شفافية اللغة التي تجعلنا نشعر بأننا قد أصبحنا أبطالاً، بحارين، رياساً، ولكننا سنصحو سريعاً ونعود إلى اتزاننا لمتابعة تفاصيل الصورة بعد أن يسرقنا الكاتب عبر لغته المتألقة هذه الرحلة العجيبة.

إن وصف حنا مينه لاخلاق الريس وتعامله مع البحر يفتح البحر أمامنا من جديد ويعطي وقفتنا أمام الحياة معنى أعمق من خلال فيض من الصور الشعرية لكل مظاهرها، الشمس، الفجر، البحر، بعد أن يغور في عمق نفس البحار ناقلاً تفاصيلها إلى السطح حيث تغلف مظاهر الطبيعة وتكسبها مرارتها. بهذه اللغة التي يختلط فيها المحسوس بالمرئي، الداخلي بالخارجي في تآلف عجيب، إن الكاتب يسيطر علينا عبر قصائده البحرية المقدمة من خلال عمل درامي ناضج، كاتب اللغة من أبرز ما فيه، هذه اللغة التي أتقنها الكاتب، وتألق في استخدامها في عمله هذا، لغة موسقة مؤلفة من حروف ما عرفتها لغة، تواكب حركة الطبيعة وحركة النفس البشرية في وحدتها وصراعها، لغة تحس، تفهم، تدرك، ولكن يصعب تقليدها، تماماً مثل ابتسامة البحر، مثل ابتسامة الأرض التي هي ألق يفوق كل ما في قدرة الرسامين على الإبداع.